نموذج جديد من قصص قومي :

إدريـــــس

(قصة مغربية بالفرنسية — للأستاذ علي الحامي)

للأستاذ محمود تيمور بك

ثلاثة عناصر ، متى توافرت لعمل فني مكنت له ، وأبلغته ذروة الإجادة ، فأسلست له أهواء النفوس ...

تلك العناصر التي أعنيها ، هي :

قوة الإحساس ، وصدق التعبير ، وموهبة الأداء ...

وقد اتسقت ثلاثتها في هذه القصة التي ألفها الأستاذ « علي الحامي » في اللغة الفرنسية ، وسماها : « إدريس » ، وصور بها الحياة المغربية وما يضطرم فيها من آلام وآمال ...

في تلك القصة تنبسط صحف من التاريخ ، وتنصقل مرآة للحاضر ، وتتجلى أحوال سياسية واجتماعية قائمة ، وتترسل روح من الوطنية تثير الأفئدة وتهز المشاعر . فالكتاب بفضل ما حواه من ذلك كله — يعد نموذجاً من القصص القومي ، جديراً بالتقدير والإعجاب ...

ومما هو مسلم به عند البصراء من نقاد الأدب أن الفن لا يجود ولا يؤتي جناه إلا إن تركت له حرية التحليق والانطلاق ، لا نزعة تملي عليه ، ولا مبدأ يتحكم فيه . ومن ثم كانت القصص التاريخية والسياسية والوطنية في المقام الثاني من القصص الفني ، لأن كتابها مقيدة أقلامهم بما حدد لهم من أغراض ، وما عين لهم من أهداف .

ولكن الأديب « الحامي » في قصته القومية ، ينجو من تبعة هذا النقد ، ويسمو على تلك الملاحظة ، وذلك لأنه لم يخضع قلمه لمنحى مسوق إليه ، ولم يرد فنه على غرض دخيل عليه . وإنما أحس في قوة ، وعبر في صدق ، وأدى قادراً على الأداء .

لقد عايش المؤلف أمته ، وشهد ما تعانيه من كوارث ، وما يعوق خطاها من أغلال ، وشعر بما يعتلج بين حناياها من منازع الحرية والعزة ، وكان لذلك أثر في نفسه لم يلبث أن دفعه إلى التعبير ، فجرى قلمه طلقاً يصور حياة قومه ، ويكشف عن آلامها وخوالج نفسها في إيحاء فني قويم .

وأنت تسايرُ « إدريس » بطل هذه القصة ، وهو يروي لك أحداث حياته ، وما تعاقب عليها من أحوال ، فإذا بك — وأنت مسترسل معه — تطالع الحياة المغربية في عصرها العتيد ، فترى كيف صنعت سياسة الاستعمار بذلك الوطن المغلوب على أمره ، وتعلم كيف يسام الخسف والعسف في جحيم تلك السياسة المشؤوم ، وكيف تتوق نفسه إلى عيش الحرية والكرامة ، فهو يكافح ويجاهد ما وسعه الكفاح والجهاد .

فقارىء هذه القصة لا يملك سكينته إزاء ما يمر به من صور تفصح له عن نفسية شعب أبي يتترى في الحديد والنار ، وتشعره بما يكمن في سريرة ذلك الشعب من فتوة وحمية ، وما يغلي في عروقه من دماء أسلافه الذين كانوا في طليعة بناة الحضارة وسادة الأمم .

والقصة في جملتها مزاج طريف من التاريخ والسياسة والوطنية والاجتماع ، أو طاقة مزهرة تجمع تلك الأفانين المختلفة ؛ وبراعة الكاتب تتجلى في تأليف هذا المزاج ، وتنسيق تلك الطاقة . فهيهات أن يلمح القارىء في أطواء القصة حديثاً لا يستدعيه الموقف ، أو موقفاً ينبو عن السياق ، أو إغراقاً في وصف وتصوير تنجافى به القصة عن سبيل التأثير والإقناع .

ما أكثر ما كتب الغربيون عن الأمم الشرقية والإسلامية بلغات الغرب ، ولكن ما كتبوه لا يصور نفسية هذه الأمم وعقليتها حق تصويرها ، ولا يستوفي حقائقها كما هي عليه ، وذلك لأن أولئك الكتاب إما أن تحدوهم نية سيئة ونزعة مغرضة ، وإما أن يقعد بهم عجز عن التحقيق وصدق التصوير .

وإذن فقد أحسن صاحب « إدريس » صنعاً ، إذ كتب قصته بلغة غربية ، سداً لذلك النقص ، وإطلاعاً لقراء الغرب على حقائق أمة إسلامية فتية تنشد سلامة وكرامة .

وما أجمله توفيقاً أن تكون تلك اللغة الغربية التي كتبت بها القصة هي اللغة الفرنسية .. فالقصة ليست إلا صفحة من اضطهاد المستعمر الفرنسي . فمن الخير أن يقرأها الفرنسيون بلغتهم ، دانية المنال ، حتى يتبين لهم : كيف يؤدون في بلاد المغرب رسالة الحرية والسلام !

محمود تيمور